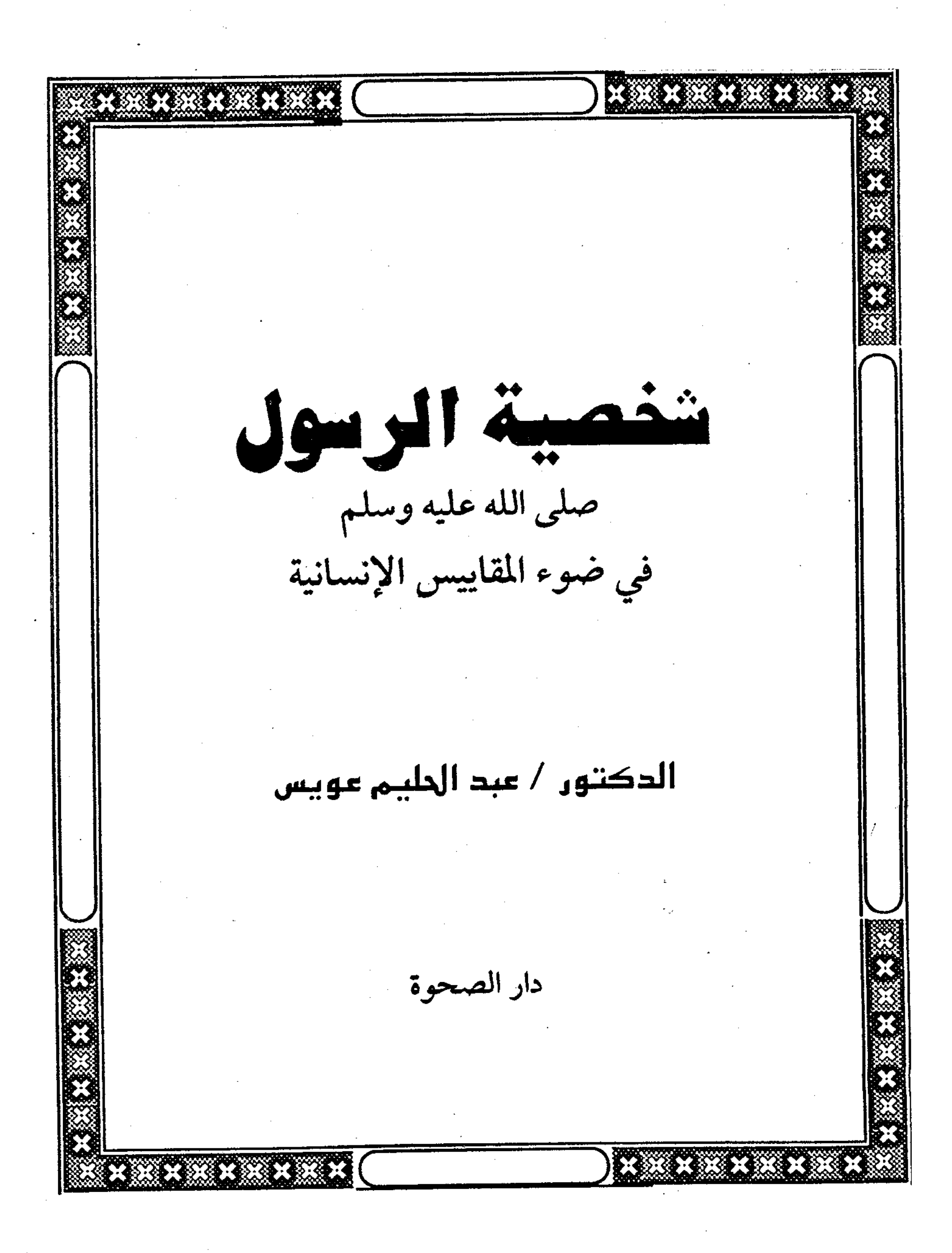


شخصية الرسول

صلى الله عليه وسلم

في ضوء المقاييس الإنسانية

الدكتور / عبد الحليم عويس

دار الصحوة

دار الصحوة
القاهرة : ٣٦٩٠٠٧١ - فاكس : ٣٦٩١٤٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

ـ إلى هؤلاء الذين قدّموا الكثير عن محمد (الإنسان) (رسول الحرية والعدالة) على حساب محمد النبيّ (رسول الله)..

ـ وكأنهم تصوروا أن محمدًا الإنسان يمكن أن يغني عن محمد النبيّ، أو ربَّما توهموا أن محمدًا النبيّ قد يتناقض مع مقاييس (محمد) العظيم الإنسان.

ـ إلى هؤلاء ـ هداهم الله ـ أقدم هذا البحث، مبينًا ـ بوضوح ـ أن محمدًا الإنسان (محرر الإنسانية) يتعانق مع محمد النبيّ (رسول الله ﷺ) في انسجام وتآزر... وفي نسيج واحد، أمام كل المقاييس الموضوعية والإنسانية المحايدة.

ـ وسلام على محمد الإنسان النبيّ ... وأفضل الصلاة والسلام.

د/ عبد الحليم عويس

تمهـــــيد :

تباينت النظرة إلى «مقاييس الشخصية» الكاملة والنموذجية خلال الأحقاب المتطاولة في التاريخ، من عصر إلى عصر، ومن أمة إلى أمة أخرى.

ومما لا ريب فيه أن المقاييس الغالبة لدى هذه الأمم كانت مقاييس ذاتية تستقى أركانها من فكرها المسيطر، ومن عقائدها المنتشرة، ومن طبيعة المرحلة التاريخية التي تمثلها، ومن مجموعة الظروف البيئية والنفسية والعملية الأخرى.

وقلما برزت في مسيرة التاريخ (ومقاييس عامة) للشخصية المتكاملة التي تعبر عن الخصائص الإنسانية العالية، وتحمل في إطاريها النظري والتطبيقي تلك الصورة المثلى، أو الإنسانية النموذجية ، والتي يجب أن تكون القدوة المتألقة لمجموع الأمم ولسائر مراحل التاريخ.

ولقد حاول كثير من المتفلسفين «والطوباويين» أن يتخيلوا نماذج فردية، وأطرًا جماعية، لكنهم قد افتقدوا في سائر ما تخيلوا ـ الفهم الحقيقي للإنسان ، فارتفعوا به أحيانًا ـ وبالمجتمع الذي تخيلوه له ـ إلى مستوى المثالية الملائكية التي لا علاقة لها بالجانب البشري في الإنسان، وهبطوا به في أحيان أخرى ـ إلى مستوى غريزي ـ فردي أو جماعي ـ يسلب الإنسان كل خصائصه الروحية، وأشواقه العليا.

وبالتأكيد فإن لنا أن نتوقع أن يكون أصحاب العقائد والمذاهب ـ في التاريخ ـ قد وضعوا مقاييسهم للشخصية النموذجية ، على ضوء الأسس

التي تقوم عليها عقائدهم ومذاهبهم.

فعند البوذي لابدّ أن تكون الشخصية النموذجية، هي الشخصية التي تطبق تعاليم البوذية تطبيقًا كاملاً، بصرف النظر عن محاكمة هذه التعاليم إلى منطق «القيم العامة» ومقاييس الحق والعدل ، وإلى ما هو أهم، وهو طبيعة الفطرة الإنسانية، بتوازنها وتكاملها.

وعند اليهوديّ ، سنجد اليهوديّ الكامل هو ذلك الذي يطبق التوراة وإضافات «الحاخامات» تطبيقًا حرفيًا، دون النظر إلى (المقياس العام) الذي نستطيع به معرفة الصحيح والباطل من الأفكار وإلى مدى ملاءمة هذه الأفكار للطاقة الإنسانية.

ونستطيع أن نعمم ذلك على النصرانية، وعلى بعض المنحرفين في تصورهم للإسلام، وعلى «البرجماتية» النفعية ، وعلى العنصرية القومية، وعلى بقية أصحاب الملل والنحل.

ولم يقع إلا نادرًا في التاريخ أن برزت (المقاييس العامة) المحايدة والموضوعية، وحتى عندما كان يقع ذلك، وتتوافر فيه الرغبة الصادقة في التقويم الموضوعي فإن الموروثات الفكرية والخلفيات الاجتماعية كثيرًا ما كانت تحول دون استقامة الموازين.

ولكن مع تقدم المنهج العلمي، وشيوع موازين النقد التاريخي المقارن، ومع انفراج الضغوط الكنسية، وتقدم وسائل المعرفة، وسهولة تبادل الأفكار ، والوصول إلى مصادرها الصحيحة... بدأت تنحسر الموجة الشخصية ـ بقدر ما ـ وبدأت تظهر بين الفينة والفينة ومضات

المقاييس الموضوعية وكأنها تخرج ـ ظافرة ـ من بين ظلمات الجهل والحقد والعنصرية التي تراكمت في مراحل متطاولة من التاريخ!!

ومن هنا ، فنحن نحترم ـ بخاصة ـ تلك النظرات والأحكام التي مدّت الطرف إلى سائر الآفاق ، ودرست دراسة موضوعية مقارنة، ونحن نعتبر رأيها ـ قبل غيرها ـ هو الرأي الجدير بالتقدير .!!

مقاييس الشخصية النموذجية :

ثمة أسس انتهى إليها الوعي الإنساني يقوم عليها بناء الشخصية الكاملة بصرف النظر عن الخلاف حول بعض الخصائص الفرعية، أو حول تكثيف بعض الظلال في جانب على حساب الجوانب الأخرى ، مما يميز غالبًا بين نظرية وأخرى.

والركنان الجوهريان في الشخصية النموذجية هما :

- أن تكون شخصية واضحة، لا يغلب عليها الطابع الأسطوري أو المثالي المجرد.
- وأن تكون هذه الشخصية ذات تأثير إنساني عام امتدّ خلال القرون، وعبر أماكن مختلفة وأجناس مختلفين[1].

ولئن كان النظر ضروريًا إلى هذين الركنين الجوهريين، في كل شخصية تدخل في مجال العظمة الإنسانية، فإن تحديد مركز هذه الشخصية يتحدد على أساس مقياسين آخرين هما:

١ - المستوى الكمي (Quantity) أي مقدار التأثير الذي ينسب للشخصية.

٢ - المستوى الكيفي (Quality) أي نوع التأثير وجوهره[٢].

وإذا تجاوزنا هذه الأساسيات في (قياس الشخصية) فإننا نجد مناحي مختلفة في النظر إلى العظمة الإنسانية.

ومن الغريب كما ألمعنا إلى ذلك - أن الموروث الثقافي والظروف الحضارية - تتحكم في مقياس النظرة، مهما كانت الرغبة في الحياد قائمة.

فإن المحاولة الناجحة التي لقيت صدى عالميًا كبيرًا والتي قام بها الأمريكي النصراني (مايكل هارت) لترتيب أعظم مائة على امتداد فترة زمنية تمتد ستة وعشرين قرنًا من التاريخ، هذه المحاولة لم تفلت من عدد من المثالب الخطرة على رأسها سيطرة النزعة الذرائعية (البرجماتية) على مقياسه، بحيث لوحظ إصرار المؤلف على تصدير النتيجة العملية لجهاد العظيم، كما لوحظ على المؤلف شيء من التحيز للعنصر البريطاني بعامة والاسكتلندي بخاصة ، وكذلك ميله لعلماء الفلك والقانون والفيزياء الذين ينتمي إليهم بحكم ثقافته وتخصصه[٣]، كما أنه - من وجهة نظرنا - ظلم عددًا من الحضارات، على رأسها الحضارة الإسلامية، وأخطأ في وضع عدد من الشخصيات في قائمة «المائة الأوائل» كان أولى بهم أن يخرجوا من دائرة العظماء خروجًا كاملاً، نظرًا لتأثيرهم السلبي «الهدام» في مجرى الحضارة الإنسانية أمام المقاييس الحقيقية للعظمة الإنسانية. وعلى رأس هؤلاء: كارل ماركس، ولينين وستالين، وداروين، وماوتسي تونج، وجنيكيزخان، وفرويد، ونيقولو ميكيافيللي.

إن علماء النفس والتربية المحدثين يقفون شبه حائرين أمام البناء الداخلي للشخصية الإنسانية، وهم يرون أن فهم المؤثرات الحقيقية، والعناصر الأساسية المؤدية للسلوك البشري، من الأعمال البالغة الصعوبة.

وإنهم ليحارون أكثر عندما يشعرون بالبون الشاسع بين تقدم علوم الحياة والطبيعة، والتأخر الغريب في فهم الإنسان، نفسيًا وسلوكيًا، ويتمنون لو أمكن صياغة «تكنولوجيا السلوك الإنساني»[٤]، بحيث يمكن استخدام التكنولوجيا في فهم أعمق القضايا الإنسانية ، وفي تكريس خدمة احتياجات الإنسان الروحية[٥].

ويرى هؤلاء النفسيون و المربون أن السلوك البشري لا يزال على العموم ينسب إلى قوى تقيم في داخل الإنسان، فيقال على سبيل المثال عن إنسان جانح إنه يعاني شخصية مضطربة، بينما يقال ـ وبالتالي ـ عن إنسان مستقيم إنه ذو شخصية سوية.

وفي رأي علماء النفس أن الشخصية تبرز سلوكها اعتمادًا على التفاعل بين ثلاث شخصيات داخلية هي الأنا (ego) ، والذات العليا (Superego) واللاشعور الغريزي أو الهو (Id).[٦]

وهكذا ـ من خلال هذه اللمحة العابرة ـ تبدو أمامنا طبيعة الأسلوب الذي ينهجه علماء النفس والتربية في فهم الشخصية الإنسانية وتقويمها. . . وإذا نحن ذهبنا نتتبع بقية العلماء المهتمين بالإنسان والشئون الإنسانية فإننا نجد منهاجهم تخضع إن قليلاً أو كثيرًا للمؤثر الثقافي الخاص، فلعالم السياسة نظرته إلى الإنسان وتفسيره لسلوكه في ضوء قوانين علم السياسة، ولعالم الاقتصاد نظرته وتفسيره كذلك في ضوء علم

الاقتصاد، ولعالم الاجتماع نظرته ولعالم الأجناس البشرية (الأنثروبولوجي) نظرته.

ومن هنا ، واعتمادًا على أننا نرى في الإنسان كلا مركبًا لا يتجزأ ، فنحن سنتجاوز هذه النظرات الجزئية، مشيرين إلى أننا سنأخذ بالأسس الواضحة التي تقوم عليها الشخصية، وبالمقاييس العامة التي تحدد مركز عظمتها. . . . إضافة إلى أهمية أن تتوازن في الشخصية الفعاليات المختلفة، وإلى أن يكون لها قيمة وجودها الذي يلائم حجمها.

وضوح حياة الرسول صلى الله عليه وسلم:

إن الركن الأول من أركان دخول الشخصية التاريخية مجال التنافس في مضمار العظمة هو أن تكون واضحة.

هكذا ذكرنا في صدر هذا البحث.

وهكذا ذكر (مايكل هارت) في مقياسه الذي قام عليه منهجه في كتابه الشهير«الأوائل» إنه يقول:

«ومن عشرات البلايين الموجودين على هذه الأرض ذكرت القواميس البيولوجية أسماء أقل من واحد في المليون، ومن الـ ٢٠,٠٠٠ شخص المذكورة أسماؤهم في القواميس نحو حوالي نصف في المائة فقط ذكرت في هذه القائمة. . ويجدر بي أن أذكر على أي أساس وضعت هذه القائمة. فالأساس الأول هو أن الأشخاص الحقيقيين هم الجديرون بالاعتبار»[٧].

والخاصة العظمى في حياة الرسول ﷺ وشخصيته هي هذا الوضوح الكبير، فكأن الذين درسوا حياته دراسة جيدة، وعرفوه من خلال ما ورد عنه في القرآن ـ الذي هو المصدر الأول لسيرته ـ وما ورد في كتب السنة عن شمائله، وما ورد في كتب السيرة والتاريخ ... لكأنهم يعيشون معه، ويحسون بحركته اليومية، وغداوته في دروب مكة والمدينة.

ويمكن للباحث أن يعرف مدى الوضوح في حياة رسول الله إذا هو قارنها بأية شخصية أخرى في التاريخ، بل إذا هو قارنها بشخصية أي نبي آخر، من مثل نوح الذي عاش ٩٥٠ سنة، أو بموسى أو بعيسى.. أو غيرهم.

لقد كان المجتمع المسلم كله يراقب كل أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته، ويسمى كل هذا (سنة رسوله الله) أي طريقته ـ ويعتبرها تشريعًا مكملاً للقرآن وشارحًا له.

يقول المستشرق (مونتيه) في وصف وضوح حياة الرسول:

«لقد ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثل محمد، وإن ما قام به من إصلاح الأخلاق وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية»(٨).

وتقول الدكتورة «لورافيشيا فاعليري» أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية بجامعة نابولي بإيطاليا:

« لقد حاول أقوى أعداء الإسلام ـ وقد أعماهم الحقد ـ أن يرموا نبيّ الله ببعض التهم المفتراة ، لقد نسوا أن محمدًا كان قبل أن يستهل

رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته، ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوي محمد على تهديد الكاذبين والمرائين في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية لو كان قبل ذلك رجلاً كذابًا[٩]؟

لقد عاش محمد أربعين سنة قبل البعثة مع أهل مكة، يتعامل معهم يوميًا، ويشترك في أمورهم العارضة، والكبيرة، وما عرف عليه السلام بشيء أمسكوه عليه قبل إعلانه نبوته، فما غش ، وما كذب، وما خان، بل كان عندهم الصادق الأمين.

وإنه عليه السلام عندما أمره الله بإعلان رسالته صعد الصفا، وهتف بقريش، قائلا: أرأيتهم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفوح هذا الجبل أكنتم تصدقونني؟

قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبًا قط[١٠].

وثمة تقرير آخر عن هذه الفترة الطويلة اعترف فيه عدو الرسول «النضر بن الحرث بن كلدة» . . . فقد قال لقريش في مجلسهم وهم يتباحثون كيف يقاومون الرسول، فقام لهم النضر وقال:

ـ يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم فيه ما قلتم[١١].

بل إن قريشا ـ بعد بعثته وحربهم له ـ لم يتورعوا عن أن يضعوا

عنده ودائعهم، وعندما هاجر الرسول ﷺ خلف على بن أبي طالب وراءه ليؤدي هذه الودائع إلى أهلها [١٢].

فهل هناك شهادة أبلغ من هذه الشهادة؟

وهل ورد في التاريخ أن عدواً يأمن عدوه ـ بهذه الصورة ـ اللهم إلا إذا كانت صفحته وشخصيته واضحة غاية الوضوح، وإلا إذا كان في غاية الثقة من أنه في القمة من نقاء الخلق وصفاء السريرة ورقي المسلك.

ولم يقف الأمر عند رقابة المجتمع بعامته بل ثمة (عيون) أكثر إحاطة به تقف دائمًا على باب منازله ترصد كل حركة يأتيها. . . وتسجلها، وتنقلها. . . وتعتبرها تشريعًا.

إن هذه العيون هم (خدمه ومواليه) الذين من أشهرهم هند وأسماء ابنتا حارثة، وسلمى، وخضرة، ورضوى وميمونة بنت سعد، وأم أيمن واسمها بركة، وزيد بن حارثة، وثوبان، وسفينة، وأنسة، وأبو كبشة، وصالح شقران، ورباح ، ويسار، وأبو رافع، وفضالة ورافع، وأبو مويهبة [١٣]. ومدعم، وأنس بن مالك، الذي يعد أشهرهم على الإطلاق والذي عاش بعد الرسول أكثر من سبعين سنة وعبد الله بن مسعود صاحب نعليه، وربيعة بن كعب، وعقبة بن عامر صاحب بغلته، وبلال، ومخبر، وكيسان، ووردان، وغيرهم [١٤].

ـ أما أهل الصفة، وعلى رأسهم المحدث المعروف (أبو هريرة) الذي اعتبر أكثر الرواة عن رسول الله ﷺ ـ أما هؤلاء فكان عليهم ملاحقة الرسول عليه السلام منذ أول خطوة يخطوها خارج بيته.

وينفرد الرسول ﷺ في وضوح شخصيته وسلوكياته كلها - بميزة لا يشاركه فيها أحد غيره في التاريخ المعروف. فمن بين المائة الذين اختارهم (مايكل هارت) كان هناك (١٩) لم يتزوجوا ، لكن ليس هناك إلا محمد عليه السلام هو الذي حقق تلك الشخصية الفذة بينما كان يجمع بين تسع من الزوجات في آن واحد، والقيمة الحقيقية لهذا العدد من الزوجات، قد نعرفها إذا تذكرنا المثل الدارج الذي يفيدنا بأن العظيم لا يكون في بيته عظيمًا... فكيف استطاع محمد أن يظل عظيمًا في كل هذه البيوت؟ وأن تظل زوجاته من بعده مقدرات لعظمته، مع اختلاف قبائلهن، ومع أن بعضهن عشن بعده نحو خمسين سنة، فعائشة عاشت إلى سنة ٥٨ للهجرة، وأما جويرية بنت الحارث فقد عاشت إلى سنة ٥٦ هـ وعاشت صفية إلى سنة ٥٠ هـ ، وحفصة بنت عمر عاشت إلى سنة ٥٠ أو ٤٥هـ، وأم سلمة عاشت إلى سنة ٥٩ هـ أي بعده بنحو خمسين سنة[١٥].

وليس هذا مناط الشاهد الذي نريده من تفرد النبي بهذه الميزة التي لم يفهمها كثير من أعداء الإسلام أو المسلمين حق الفهم... وإنما مناط الشاهد الذي نريده هو تلك الدرجة من الوضوح التي يمكن أن يعكسها وجود هذا العدد الكبير من الزوجات.

فإذا أمكن لمحمد أن يعيش مع الناس حياة ظاهرية يرونه فيها ويراقبون حركاته، وقد يستطيع الكثيرون أن يظهروا في المجتمع بصورة متكلفة - فإن محمدًا لا يستطيع أن يتكلف حياة غير حقيقية في بيته... مع كل هذا العدد من الزوجات!!

وإذا أمكن أن تكون هناك زوجة أو زوجتان، تقومان بإخفاء شيء

من حياته، فإن من المستحيل عقلاً ـ لو كان في حياته شيء مريب ـ أن يتوطأ تسع زوجات ـ وحتى بعد وفاته ـ على إخفاء هذا الشيء. فسيرة محمد التي بين أيدينا عن شمائله إنما هي أوثق سيرة مأمونة من الكذب والتمويه على امتداد التاريخ كله.

وجانب آخر يحققه هذا العدد من الزوجات.... هذا الجانب هو أننا نستطيع أن نطمئن إلى أن كل صغيرة وكبيرة في حياة الرسول وشخصيته قد نقلت إلينا تمامًا. وليس ثمة في التاريخ كله نبي أو عظيم عرف التاريخ أخصّ خصوصياته مثلما عرف محمد ﷺ ... فحتى قضاؤه لوطره واغتساله بعده، وطريقة غسله، ونومه، وطريقة قضائه لحاجته، واغتساله منها.

كل ذلك، نقله إلينا التاريخ بطريقة موثوقة ندر أن تتمتع بمثل وثاقتها نصوص في التاريخ.

ومن زاوية أخرى فهذه هي صفحة الرسول واضحة في مصادر لا يرقى إليها شلك، فقد حفظها القرآن في عشرات السور، ولخصتها آية قرآنية تخاطب محمدًا وتصف خلقه وتقول له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١٦).

وإن كتب السنة الصحيحة والمعروفة لدى جمهرة المسلمين: البخاري ومسلم والترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه، وموطأ مالك... ليست إلا تسجيلاً وثائقيًا لحياة الرسول ولأقواله وأخلاقه. وهذه الكتب تبلغ صفحاتها عددًا من الآلاف، وقد خضعت لمنهج «الجرح والتعديل» الذي يعتبر من أوثق المناهج في النقد والتمحيص.

وقد كتب عن الرسول ﷺ وشمائله آلاف الكتب، كتبها مسلمون وغير مسلمين، وما يخلو قرن من القرون ـ منذ ظهوره ـ عليه السلام ـ إلا وتظهر دراسات عن سيرته وشخصيته، تكمل ما سبقها وتضيف ما ظهر لها.

فهل ثمة في التاريخ وضوح يضاهي هذا الوضوح أو يقاربه ؟!!!

شخصية الرسول الخلقية :

عقد الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (٥١٠-٥٩٧هـ) في كتابه الوفا بأحوال المصطفى فصلاً كاملاً عن صفات جسده ﷺ، استغرق اثنتين وستين صفحة [١٧]، ويشمل جل ما يتعلق بصفاته الخلقية، عليه السلام.

بيد أننا لا نجد هذا المقام مناسبًا لبسط القول في صفاته الخلقية الكريمة، وحسبنا أن نأخذ منها جانبًا نراه مؤشرًا كافيًا ـ للدلالة على تكامل شخصية الرسول في الجانبين الخُلقي والخَلقي.

وقد دفعنا إلى هذا ما نعتقده من التأثير المتبادل بين الجانبين، ولا سيما وأن محمدًا ـ كنبي وقائد ـ تحتاج شخصيته إلى التطابق بين الهيئة والأخلاق.

وقد جاء في الجزء الخاص بشمائل الرسول من كتاب جامع الأصول عن الترمذي أن على بن أبي طالب رضي الله عنه كان يصف الرسول ﷺ فيقول:

«لم يكن بالطويل الممغط [١٨]، ولا بالقصير المتردد، كان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط، ولا بالسبط، كان جعدًا رجلاً ، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم ، كان أسيل الخد، وكان أبيض مشربًا بحمرة، أدعج ، أهدب الأشفار، ذا مسربه شثن الكف والقدمين، جليل المشاش والكتد، إذا التفت التفت معًا، وإذا مشى يتكفؤ تكفؤًا كأنما ينحط من صبب، بين كتفيه خاتم النبوة،وهو خاتم النبيين أجود الناس صدرا وأصدقهم لهجة، وألينهم عربكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعرفه أحبه، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله، ولا يسرد الحديث سردًا، يتكلم بكلام فصل، يفهمه من سمعه» [٢٠].

أما (أم معبد) التي مر الرسول ﷺ بخيمتها أثناء هجرته، والتي حلب شاتها المجهدة، أما هذه المرأة ـ التي كانت على الشرك آنذاك ـ فقد قدمت لنا صورة أخرى تكمل الصورة السابقة التي أسلفنا ذكرها... فقد اضطرت أم معبد أن تصف ضيفها لزوجها (أبي معبد) بعد عودته، وبعد أن أظهر دهشته من وجود اللبن في الخيمة فقالت أم معبد له :

مر بنا رجل مبارك كان حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه، صِفيه لي يا أم معبد قالت:

«ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه تجله، ولم تزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل وفي عنقه سطع، أجود ، أكحل، أزج، أقرن: شديد سواد

الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق ، فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرون ربعة، تقحمه عين من قصر، ولا تشنؤه من طول ، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهن منظرًا، وأحسنهن قدرًا، له رفقاء يحفون به. إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره محفود مشحور، لا عابس ولا مفند»[٢١].

وقال جابر بن سمرة: كان ضليع الفم أشكل العين، منهوس العقبين» [٢٢].

وقال أنس بن مالك: كان بسط الكفين، وكان أزهر اللون ليس بأبيض أمهق، ولا آدم، قبض ، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء» [٢٣].

وقالت الربيع بنت معوذ: لو رأيته رأيت الشمس طالعة [٢٤].

وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول ﷺ ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أحسن في مشيه من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوي له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث [٢٥].

وتعدد الروايات عن أوثق المحدثين والمؤرخين، تصف جوانب من هيئة الرسول الخلقية [٢٦]،كما تصف طريقته في الملبس والمأكل والمشرب، والكلام والتلاوة والمشي كما تصف نقش خاتمه، ونعله، وخفه وسواكه ومشطه، وسيوفه، ودرعه وترسه، وأرماحه، وخيله وأبله وضحكه،

وتبسمه ومخالطته للناس، ومحبته للفأل الحسن، واستعماله الدهن، والمرآة، ومحبته للطيب، وصفة خبزه ومائدته واختياره البقل والخل، وأكله القديد، والشواء والتمر والعنب، وغسل يده، وغير ذلك[٢٧].

وهو تتبع دقيق - لهذا الجانب - يؤكد ما ذكرناه سلفًا عن الوضوح النادر الذي تميزت به شخصيته التاريخية - في كل الجوانب، بحيث لا يعتقد أن هناك من يدانيه في هذا الباب، عليه الصلاة والسلام.

شخصية الرسول الخُلُقية:

إن النسيج الأخلاقي لمحمد رسول الله - ﷺ - هو الآية البشرية العظمى في تاريخ هذا العالم.

إن جوهر القضية ليست في اتصاف محمد ببعض الأخلاق الحميدة، فكم من أناس اشتهروا ببعض الأخلاق، وعرفوا بها.

لقد عرفنا عن المرسلين، وعن بعض العظماء، اشتهارهم ببعض الأخلاق. والقرآن - نفسه - يصف المرسلين ببعض ما اشتهروا به :

فإسماعيل - عليه السلام - كان صادق الوعد:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾[٢٨]

وعيسى عليه السلام - وصفه القرآن بالمبارك البار بأمه.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

﴿كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (٢٩).

وفي سورة الأنبياء يصف القرآن إسحاق ويعقوب بأنهما كانا صالحين خيرين:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ (٣٠)

وفي السورة نفسها يصف القرآن لوطا وداود وسليمان بالعلم.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (٣١)

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (٣٢)

وفي السورة أيضًا ـ يوصف إسماعيل وإدريس وذو الكفل بالصبر:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٣٣)

وهكذا يصف القرآن ـ في سورة الأنبياء كما ذكرنا ـ عددًا من الأنبياء ببعض الصفات... لكن في ختام السورة نفسها عندما يصف محمدًا فإنه لا يصفه بصفة جزئية وإنما يجعله ـ كله ـ هداية إلهية إلى العالم.. إنه رحمة لهذه الإنسانية أرسلها الله كما يرسل الشمس أو القمر.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٣٤)

وفي موضع آخر يمدح القرآن محمدًا عليه الصلاة والسلام، فيقول له:

﴿وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣٥]

وبعض المفسرين [٣٦]يرون أنه «النور» المقصود في قوله تعالى:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾[٣٧]

وهكذا تتجلى الخاصية التي ينفرد بها النسيج الأخلاقي لمحمد الرسول.. إنه نسيج متكامل، وإنه نظام أخلاقي متعانق الخيوط، فليس ثمة خيط نشاز، أو خيط من فصيلة مختلفة، وإنما هي الحقيقة الأخلاقية الواحدة التي يتعامل بها الرسول مع الحياة والأحياء.

إن هذه الوحدة الأخلاقية التي تفرد بها الرسول تمثل جوهر رسالته إلى العالم، قال عليه السلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [٣٨] وهي تفسر ـ في الوقت نفسه ـ معنى أنه رحمة ونور لهذا العالم .!! فالعالم الإنساني لا نور له، ولا رحمة فيه إذا هو تجرد عن الأخلاق ، وإن أزمات الحضارات، ما اندثر منها وما بقى إنما يعود إلى انحلال الأخلاق!!

ومن عجب أن ذلك الأمي، اليتيم، الفقير، عاش أخلاقيًا طول عمره، لدرجة أنه كان ينادي بصفته الأخلاقية في الجاهلية، فكان يطلق عليه (الصادق الأمين).

إن هذا النبي الأمي كان له كما يقول كاتب عربي نصراني ـ في مجال الأخلاق شئون وشئون ، فبالرغم من مهامه الجسام، وأشغاله الكثيرة المتنوعة، وبالرغم من الغزوات والسرايا والحروب، فقد وجد الوقت الكافي ليلقي على المؤمنين ـ بأقواله وأفعاله ـ دروسًا في شئون لا تمر ببال مسئول كبير في مثل مستواه وخطورته[٣٩].

فذلك العظيم الذي كان يحاول تغيير التاريخ، ويعد شعبًا لفتح الدنيا من أجل الله. . . ذلك الرجل وجد الوقت الكافي ليلقي على الناس، دروسًا في آداب المجتمع وفي أصول المجالسة وكيفية إلقاء السلام لكأنه معلم حصرت مهمته في تثقيف بضع وعشرين تلميذًا، ولم يكن له مهمة سواها [٤٠].

والوحدة الأخلاقية التي تمثل نسيج أخلاق محمد الرسول (عليه الصلاة والسلام) ليست في أنه «أخلاقي» يمتاز بمجموعة الأخلاق الإنسانية المتعارف عليها، فلا يند عنه خلق، فهو الأمين إذا ذكرت الأمانة، وهو الصادق إذا ذكر الصدق، وهو الوفي . . . وهو الكريم . . . وهو الشجاع، وهو الزاهد، وهو المتواضع، وهو الرحيم، وهو البار، وهو الحكيم، وهو الفصيح البليغ، وهو العابد.

إن هذه الوحدة الأخلاقية التي ترجمتها شخصية محمد الاجتماعية ليست في هذا كله ـ وحسب ، بل ـ وهو الأهم ـ في أنه ـ عليه السلام ـ لم يسمح للظروف الصعبة كل الصعوبة ـ في أن تغير شيئًا من نسيج أخلاقه، ولم يجعل لتقلبات حياته من شدة إلى يسر أي أثر في ذلك.

فأخلاقه فوق الظروف . . . وفوق التقلبات.

فإذا كان التاريخ قد ذكر أن قوم موسى من بني إسرائيل حين خرجوا من مصر أخذوا حليّ المصريات ودائع، ثم هربوا بها ـ فإن محمدًا ـ وأصحاب محمد ما سمح لهم نظامهم الخلقي أن يفعلوا شيئًا من ذلك، بل إنهم تركوا أموالهم وديارهم للمشركين، أما محمد فإنه أبقى عليا بعده

ليؤدي الأمانات إلى أهلها.

وما رأيك في أن الشخصية الأخلاقية لهذا النبي لم تسمح بأن يرد هذه الأموال وهذه الديار إلى أصحابها المسلمين بعد فتح مكة. . . ؟!!

- لماذا ؟ - لأنهم فقدوها في سبيل الله ، ولأنهم كُتبوا في سبيل هذا المغرم من المهاجرين السابقين الأولين. . . فلا يجوز لهم أن يشوهوا هذا الشرف بطلب ما فقدوه في سبيل الله!!

- بل ما رأيك في أن النبي الوفي لم يقبل أن يأخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة ويعطيه لعلي بن أبي طالب. . حتى لا يعطي مقابلاً ماديًا للإسلام ويحرم آخرين من حقوق تاريخية عرفت لهم:

قال ابن إسحاق ، يصف ما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام بعد فتحه مكة.

- «حدثني أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. . . يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب. . . يا معشر قريش: ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله أجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ :

أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم بر ووفاء»[٤١] . . . !!

فحتى في هذه اللحظة الفاصلة. . . لحظة الانتصار الكاسح، لم يتخل محمد الرسول عن طبيعته الأخلاقية: العفو عن العتاة المذنبين. . و الوفاء لأصحاب الحقوق. . . والوقوف من أصحابه ـ المنتصرين ـ الموقف الصارم العادل.

ـ إنه لقادر على أن يلتزم الموقف الأخلاقي المناسب، مهما تكن اللحظة التاريخية حرجة وحاسمة. . . إنه نبيّ يشرع بسلوكه، وينطلق من منهج واضح وليس من (رد فعل) تمليه أو تفرضه أية ضواغط أو ظروف!!

لقد تحدث بعض الكتاب معددًا الخوارق التي صاحبت الدعوة المحمدية فقال: «إن من أعظم الخوارق التي كانت لمحمد ﷺ أخلاقه، فكانت في ذاتها أمرًا خارقًا للعادة بين بني الإنسان، فهي أعلى من أخلاق الملائكة لأن الملائكة حسن أخلاقهم بمقتضى كونهم: لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون «وليس فيه روحانية عيسى عليه السلام المجردة، بل كانت فيه الروحانية الإنسانية ، بما في الإنسان من مطالب الجسم وتجرد الروح، فمحمد بين الناس الإنسان الذي تتجلى فيه الإنسانية االكاملة، وفي طبعه روحانية إرادية[٤٢].

وقد كانت صفحة حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما نقلت إلينا بكل دقة وتوثيق ـ أخلاقية إنسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه الله أن يحاول بلوغ الكمال

الإنساني من طريق الإيمان والعمل الصالح. وأي سمو في الحياة كهذا السمو الذي جعل حياة محمد قبل الرسالة مضرب المثل في الصدق والكرامة والأمانة، كما كانت بعد الرسالة كلها التضحية في سبيل الله وفي سبيل الحق الذي بعثه الله به، تضحية استهدفت حياته من جرائها للموت مرات فلم يصده عنه أن أغراه قومه وهو في الذروة منهم حسبًا ونسبًا، بالمال وبالملك وبكل المغريات (٤٣)!!

والغريب أن هذه الإنسانية الأخلاقية قد طبقت على هذا النحو الخارق للعادة في أروع صور البساطة واليسر.. فبدت ـ مع سموها ـ وكأن البساطة وعدم التقعر أو التكلف هي نسيجها الذي يجمع بين خيوطها المترابطة.

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : ما لعن رسول الله ﷺ مسلمًا من لعنة تذكر ولا انتقم لنفسه شيئًا يؤتي إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، ولا ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله ، ولا سئل شيئًا قط فمنعه إلا أن يسأل مأثما ، فإنه كان أبعد الناس منه، ولا خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما (٤٤).

وقد سئلت عائشة: ما كان رسول الله ﷺ يصنع في بيته ؟ قالت : كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم (٤٥).

وأخبر أبو بكر بن عبد الله بن أويس المونس... قال: كانت في النبي ﷺ خصال ليست في الجبارين، وكان لا يدعوه أحمر ولا أسود من الناس إلا أجابه ، وكان ربما وجد ثمرة ملقاة فيأخذها فيهوي بها إلى فيه

وإنه ليخشى أن تكون من الصدقة، وكان يركب الحمار عريا ليس عليه شيء[٤٦].

وكان خادمه أنس بن مالك يقول: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته، وكان لا يظلم أحدًا أجره[٤٧].

وكان من عادته أن يجلس حيث ينتهي به المجلس، وأن يبش إلى كل من يجلس إليه حتى يظن أنه أحب أصحابه إليه.

وعن الحسن رضي الله عنه أنه ذكر رسول الله ﷺ قال: لا والله ما كان يغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدي عليه بالجفان، ولا يراح عليه بها، ولكنه كان برزًا من أراد أن يلقي نبي الله لقيه، وكان يجلس بالأرض ويوضع طعامه بالأرض ، ويلبس الغليظ ويركب الحمار ويردف بعده ويلعق والله يده[٤٨]!!

وعن قيس بن أبي حازم أن رجلاً أتى النبي ﷺ فلما قام بين يديه استقبلته رعدة، فقال له النبي ﷺ :(هوّن عليك فإني لست ملكًا إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[٤٩]).

ومما يتصل ببساطته وإنسانيته الكريمة حبه للدعابة والمزاح والابتسام الودود، وقد رويت عنه في ذلك روايات كثيرة، منها قصته مع العجوز التي قال لها : أو ما علمت أن الجنة لا يدخلها عجوز؟ فلما ولت تبكي قال ردوها، وطمأنها بأنها ستعود بكرًا شابة «إنا أنشأناهن فجعلناهن أبكارًا عربًا أترابًا»[٥٠].

وكان يسابق عائشة فلما سبقها بعد أن سبقته قال: هذه بتلك [٥١].

وكان ـ عليه السلام ـ سمحًا متواضعًا واسع الرحمة بالضعفاء والبهائم، وقد سمع بكاء صبي وهو في الصلاة فخفف صلاته حتى لا تفتن أمه التي كانت تصلي وراءه.

ورأي جملاً هزيلاً فقال: اتقوا الله في هذه البهائم أطعموها واركبوها صالحة.

وكان زاهدًا في الدنيا ، وقصته مع عمر بن الخطاب معروفة ذائعة ، فقد دخل عليه عمر رضي الله عنه يومًا فرآه على حصير قد أثر في جنبيه ورفع رأسه في البيت فلم يجد إلا إهابا معلقًا وقبضة من شعير وحصيرًا تكاد تبلي، فبكى عمر، فقال له ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقال عمر : يا نبي الله ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبيك و،هذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته ؟ فقال له الرسول : أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا [٥٢].

وكان ـ مع ذلك كله ـ أشجع الناس، وقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق رسول الله ﷺ قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ وقد سبقهم وهو يقول: لن تراعوا !! وهو على فرس لأبي طلحة عرى في عنقه السيف: فجعل يقول للناس: لن تراعوا : وقال: وجدناه بحرًا أو إنه لبحر يعني الفرس [٥٣].

وعن علي رضي الله عنه قال: لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ

بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ ، وعنه قال: كنا إذا احمر البأس ولقي القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما كان أحد أقرب إلى العدو منه (٥٤).

وكان أوفى الناس بعهوده، وأوفاهم لأصحاب الأيادي، حتى ولو كانوا من أعدائه. ولا زال وفاء الرسول بشروط صلح الحديبية المجحفة أمرًا تناقله المؤرخون بإعجاب ، وقد ظهر وفاؤه من اللحظة الأولى التي أعقبت توقيع الصلح. إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو «يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ ، فلم يقبله الرسول عليه السلام، وقال له :«اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وأنا لا نغدر بهم» (٥٥).

وأما وفاؤه لأصحاب الحقوق فهو آية من آيات خلقه الباهرة ، ومعروف في التاريخ قصته مع هوزان بعد موقعة حنين، فإن هوزان التي وقع نساؤها وأطفالها في الأسر لم تجد ما تشفع به إلا أن تذكر أن النبي ﷺ قد استرضع فيها. . . فكان تذكيرها للرسول بذلك، بعد ما أساءوا إليه أبلغ إساءة ـ سببًا في إطلاق آلاف الأسرى.

وعندما كان الرسول ﷺ في مرض الموت خرج إلى أصحابه في هذه اللحظات الصعبة، ليخطب فيهم، ويقول لهم :

« يامعشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيرًا، فإن الناس يزيدون ، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها

فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[٥٧].

ولعل مما ينطبع في الذهن فلا يتحول، قوله عليه السلام بينما هو في محنة غزوة أحد، والمسلمون يدفنون شهداءهم عقيب المعركة:

«انظروا إلى عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام فإنهما كانا متصافيين في الدنيا، فاجعلوهما في قبر واحد»[٥٨]!!

إن هذه بعض ملامح شخصية الرسول الأخلاقية ، وقد عمدنا فيها إلى الإيجاز الشديد، وإلى التركيز على بعض المواقف والنظرات الضرورية، ولقد أغنانا كتاب الشمائل والسير عن التفصيل، والجدير بالنظر في نهاية هذا العرض ـ أن قيمة هذه الأخلاق قد تجلت في وضع كل خلق في موضعه الصحيح، دون أن تختل النسب والموازين التي تستحقها القيمة الأخلاقية في ظرفها المناسب ، وقد بدت أخلاق الرسول ـ في مجموعها ـ على هذا النحو، وكأنها عقد جميل منسجم الحبات يتوج جبين الإنسانية، ويطلعها ـ في الوقت نفسه ـ على المستوى الإنساني الرفيع الذي يمكنها أن تدنو منه . . .وأن تتأسى به الأسوة الكريمة الحسنة في إطار من التواضع والبساطة والرفق، لأن النظام الأخلاقي لمحمد يعتمد الرفق أساسًا في المعاملة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وبين الإنسان والحيوان وبين الإنسان والجماد[٥٩]. . وهو يقول: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله» ويقول :«لا تنزع الرحمة إلا من شقي».

ويقول عن جبل أحد : «أحد جبل يحبنا ونحبه». .

فهل رأت البشرية أرقى من هذه النظرة الأخلاقية الكونية الشاملة

التي تنتظم كل من في الحياة. . . وما في الحياة ؟!!

إنها نظرة أخلاقية واحدة من مصدر واحد، وتعتمد على وسيلة واحدة، وتهدف لغاية واحدة.

إن شخصية الرسول الأخلاقية (عليه الصلاة والسلام) هي التي وقفت في وجه المشركين ثلاثة عشر عامًا بمكة فلم تعجز، ولم تهن، ولم تيأس ، وهي نفسها التي فاضت في المدينة على شئون الدنيا، فدلت على ما فيها من الحيوية والقوى التي جعلتها أهلاً للتغلب على كل معضلة، في وقتها ومناسبتها. .

تلك القوى والصفات التي لم تجتمع لأحد من قبله ولا بعده، جعلته ـ عليه الصلاة والسلام ـ « ومن أية ناحية نظرت إليه» مثلاً كاملا، وأسوة حسنة، بل من مجموع هذه القوى والصفات يبرز للناس رسول الله ﷺ (سواء أكان في أيام الدعوة المجردة عن السلطة أو في أيام الدعوة المصحوبة بالجهاد في المدينة) ذاتا موفقة ناجحة، انصرفت إلى الله بكليتها فجعلته أمامها، ووضعت ما عداه وراءها. . . هو في كلتا القريتين الناسك العابد، الباكي بين يدي خالقه، وهو فيها الزاهد، يعرض عليه أصحابه أن يوطئوا له فراشًا، فيقول: مالي وللدنيا !! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها [٦٠].

* * *

ـ وتلك بعض أبعاد شخصية الرسول الأخلاقية. . المتكاملة الشاملة!!

ـ فعلى النبي الأمي الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق أفضل الصلاة وأزكى السلام.

شخصية الرسول أمام المقاييس العامة:

عمد مؤرخو السيرة النبوية في القديم والحديث إلى الإشارة إلى المقاييس الأساسية التي تبنى عليها العظمة الإنسانية ، ولئن كانت إشاراتهم مجملة، إلا أن ذلك لا ينقص من قيمة هذه الإشارات ، فالإجمال الذي اهتموا به في ذكر المقاييس قد أغنى عنه تتبعهم الدقيق لصفات الرسول ﷺ الجسيمة والخلقية تتبعًا استقصائيًا، لم يتحقق لشخصية غيره في تاريخ الأنبياء والعظماء، وقد تسابقوا في ذلك، وصنفوا في شمائله كتبًا مستقلة أبرزها ما جمعه الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، في كتابه المعروف بكتاب (الشمائل)، والحافظ ابن عساكر في شرحه للترمذي ، والإمام المزي في تهذيب الكمال، فضلاً عن أبواب الشمائل في كتب الحديث المعتمدة، وما ورد في سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية وغيرها.

وقد شاع بين المحدثين ومؤرخي السيرة ذلك المقياس المعروف المجمل الثابت في النظر إلى شخصية الرسول... إنه المقياس الذي يتلخص في عبارة زوجه عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه فأجابت: «كان خلقه القرآن».

ففي رواية إسماعيل بن إبراهيم الأسدي عن يونس عن الحسن قال:

سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن [٦١].

وفي رواية سعيد بن أبي عروة عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: قلت : بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ القرآن، قال قتادة : وإن القرآن جاء بأحسن أخلاق الناس [٦٢].

وقد فطن المحدثون ومؤرخو السيرة النبوية إلى الفرق في أخلاق رسول الله ﷺ بين مستويين : مستوى النبوة، ومستوى الإنسانية.

فقد ورد في كتاب الشفاء للقاضي عياض أن خصال الجمال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي اقتضته الجبلة، وضرورة الحياة الدنيا، ومكتسب ديني ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب إلى الله تعالى زلفى ، ثم هي على فئتين أيضًا، منها ما يتخلص لأحد الوصفين، وما يتمازج بتداخل ، فأما الضروري المحض ، فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان في جبلته عليه الصلاة والسلام من كمال خلقته، وجمال صورته وقوة عقله وصحة فهمه وفصاحة لسانه ـ وقوة حواسه وأعضائه واعتدال حركاته، وشرف نسبه وعزة قومه وكرم أرضه.

ويلحق به ما تدعو ضرورة حياته إليه من غذائه ونومه وملبسه و مسكنه ومنكحه وماله وجاهه.

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية والفضائل الشرعية من الدين والعلم والحلم، والصبر والشكر، والعدل، والزهد، والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الخلق، والمعاشرة وأخواتها، وهي التي

جماعها حسن الخلق (٦٣).

ومن هذا النص نرى أن مقياس القاضي عياض يفرق بين المستوى الذي هو هبة من الله... ولا مجال للقياس عليه، والمستوى الإنساني المكتسب من توجيهات الدين.... لكن هذه التفرقة وإن كانت لها أهميتها في الجانب التربوي والتعليمي، لا أهمية لها في جانب تقويم شخصية الرسول ﷺ، فشخصيته كل لا يتجزأ من ناحية تكوينها الخاص، وأعمالها الانعكاسية، التي تعبر عن جماع العظمة، وعن كينونته كرسول وإنسان في آن واحد.

على أن آفاق الرسول الإنسانية آفاق فسيحة تعطينا نموذجًا كاملاً للدورة من الحياة تتعدد فيها المواقف والأبعاد، ولا نكاد نتوجه إليها بموقف من المواقف أو مشكلة من المشكلات إلا ونجدها تعطينا الحلول المثلى التي تليق بإنسانية الإنسان حين يسمو إلى أقصى القمة التي يمكن أن تصعد إليها النفس الإنسانية.

ولئن كان محمد ـ الرسول ـ ﷺ ـ أبعد من أن ترنو إليه البشرية أو أن تسعى للوصول إلى درجته، لأن درجته ـ كرسول إنما هي درجة اصطفاء محض و﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ (٦٤) ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ﴾ (٦٥).

فإن الجانب الآخر من شخصية محمد ـ الإنسان ـ إنما يشكل إطارًا فسيحًا يستطيع أن يرنو إليه كل إنسان، بل إنه لمن الواجب أن يرنو إليه وأن يحاول تمثله والتخلق بخلقه. ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ**

حَسَنَةٌ﴾ (٦٦).

وليس معنى ذلك أن ثمة انفصالاً ملموسًا في شخصية الرسول بين جانبي النبوة والإنسانية ، بمعنى أنه عليه الصلاة والسلام، يمكن أن يبدو في بعض الأحايين ملائكيًا خارجًا عن نطاق البشر في سلوكياته ـ إذا كان في موقف من مواقف النبوة ـ أو أن ينزل إلى مستوى بشرى لا يليق بسموه إذا كان في موقف من مواقف الإنسانية . . . كلا ، فإن شخصية محمد قد رشحت بالجانبين في سياق واحد، وهذا معنى الربط القرآني الدائم في شخصية الرسول بين البشرية والرسالة. **﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾** (٦٧). **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾** (٦٨).

ونحن نعرف من تاريخ بعض الهداة أنهم فصلوا ـ في الحياة ـ بين جوانب وجوانب، كما أننا نعرف أن إحدى الديانات الكبرى قد انحرف بها أصحابها، فجعلوا من نبيها «عيسى عليه الصلاة والسلام شبه إله»، **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾** (٦٩).

وبالتالي فقد ضاع معنى الشخصية الإنسانية النموذجية» الذي يمكن أن يتأسى بها، وقد أغرقت ـ بألوهيتها المزعومة ـ في البعد عن واقع الناس، وعن إمكانية أن تكون مقياسًا لهم، وكان من أثر ذلك أن ضاعت ملامحها وأبعادها. . . وانحصرت في دائرة محدودة ـ في جانب ـ وفقدت تأثرها الشمولي الإنساني الملموس في جانب آخر.

أما شخصية (محمد الرسول عليه الصلاة والسلام) فقد رآها الناس نموذجًا حيًا متحركًا يواجه الحياة في شكلها العادي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ويجوع، ويتزوج، ويغضب ويحارب ويزور الأرمل والمريض، إلى آخر الأحوال والعوارض التي تلم بحياة الناس كلهم.

والمهم أنه يواجه كل هذه الجزئيات المعاشية بمنهج النبوة، مقدمًا للناس الأسوة السوية التي تحافظ على معالم منهجها مهما تباينت الأحوال واختلفت الظروف.

يقول الأستاذ سليمان الندوي، مصورًا هذه الخاصة التي بهرت الباحثين المنصفين، مسلمين وغير مسلمين، والتي مثَّلت إطارًا فريدًا في شخصيات التاريخ البشري كله. . . يقول:

«كان الواعظ الذائع الصيت الأستاذ حسن علي رحمه الله يصدر في (باتنة) قبل خمسين عامًا مجلة (نور الإسلام) وقد قال في جزء منها إن صديقًا له من البراهمة قال له: إني أرى رسول الإسلام ، أعظم رجال العالم وأكملهم، فقال له الأستاذ حسن علي:

ـ وبماذا كان رسول الإسلام عندك أكمل رجال العالم؟

فأجاب : لأني أجد في رسول الإسلام خلالا مختلفة، وأخلاقًا جمة، وخصالاً كثيرة: لم أرها اجتمعت في تاريخ العالم في إنسان واحد في آن واحد : فقد كان ملكًا دانت له أوطانه كلها: يصرف الأمر فيها كما يشاء. وهو ـ مع ذلك ـ متواضع في نفسه: يرى أنه لا يملك من الأمر شيئًا، وإن الأمر كله بيد ربه. وتراه في غنى عظيم : تأتيه الإبل موقرة

بالخزائن إلى عاصمته، ويبقى مع ذلك محتاجًا، ولا توقد في بيته نار لطعام الأيام الطوال. وكثيرًا ما ينطوي على الجوع. ونراه قائدًا عظيمًا : يقود الجند القليل العدد، الضعيف العدد، فيقاتل بهم ألوفًا من الجند المدجج بالأسلحة الكاملة ، ثم يهزمهم شر هزيمة. ونجده محبًا للسلام مؤثرًا للصلح، ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن، وجأش هادئ ، ومعه ألوف من أصحابه: من كل شجاع باسل، وصاحب حماسة وحمية تملأ جوانحه، ونشاهده بطلاً شجاعًا: يصمد وحده لآلاف من أعدائه، غير مكترث بكثرتهم، وهو مع ذلك رقيق القلب، رحيم رؤوف ، متعفف عن سفك قطرة دم. وتراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلها، بينما هو لا يفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده، ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم وصدوا عنه فيحرص على إصلاحهم. وبالجملة إنه إنسان يهمه أمر العالم كله، وهو مع ذلك متبتل إلى الله، منقطع عن الدنيا، فهو في الدنيا وليس فيها، لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضى الله. لم ينتقم من أحد قط لذات نفسه، وكان يدعو لعدوه بالخير، ويريد لهم الخير. لكنه لا يعفو عن أعداء الله، ولا يتركهم، ولا يزال ينذر الذين صدوا عن سبيل الله ويوعدهم عذاب جهنم، وتراه زاهدًا في الدنيا عابدًا يقوم الليل لذكر الله ومناجاته ، إنك لتراه الجندي الباسل المقاتل بالسيف، وتراه رسولاً حصيفا، ونبيًا معصومًا، في الساعة التي تتصوره فيها : فاتحًا للبلاد ظافرًا بالأمم، وإنه ليضطجع على حصير له من خوص، ويتكئ على وسادة

حشوها من ليف، حينما يخطر على بالنا أن ندعوه بسلطان العرب، ويكون أهل بيته في فاقة وشدة، عقب استقباله الأموال العظيمة: آتية إليه من أنحاء الجزيرة العربية، فتكون في فناء مسجده أكوامٌ وتأتيه ابنته وفلذة كبده فاطمة: تشكو إليه ما تكابده من حمل القربة والطحن بالرحى، حتى محلت يدها وأثرت القربة في جسمها، والرسول - يومئذ - يقسم بين المسلمين ، ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب وإمائها، فلا تنال بنته من ذلك، إلا دعاءه لها بكلمات يعلمها كيف تدعو بها ربها»[٧٠].

من هنا فإننا يجوز لنا أن نصف شخصية الرسول بكل النعوت الإنسانية الفاضلة، فنتحدث عنه زوجًا، وأبًا، و قائدًا، وتاجرًا وعبقريًا.

وفي المقابل فإن لنا أن نتحدث عنه نبيًا معصومًا لا ينطق عن الهوى **﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾** [٧١]،ومعلّمًا لا يزيغ ولا يضلّ، ومشرعًا عظيمًا يأمرنا القرآن باتباعه. **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾**[٧٢]، **﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾**[٧٣].

ولسنا نجد أدنى شبهة تعارض بين جانبي شخصيته عليه الصلاة والسلام.

ولقد ظن بعض الناس أن مكانة محمد الرسول لا تُجيزُ أن ننعته ببعض الصفات البشرية الكريمة، كالعبقرية، والنبوغ، والأريحية مثلاً... وهذا منهج خاطئ فإن شرف الرسالة ومهمتها العظمى لا يجوز أن يرقي إليها إلا إنسان نقي عظيم مؤهل لكي يؤدي الأمانة ويحمل تبعية تمثيل

الرسالة في الحياة، وعلى خير وجه ممكن. ومهما كان من قول بعضهم في حادثة (شق صدره) عليه الصلاة والسلام، وهي الحادثة التي تكررت في حياته مرتين: مرة وهو دون الخمسة أيام حين كان عند حليمة في بادية بني سعد، ومرة وقد جاوز الخمسين،وهما حادثتان أكد أولاهما مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده والحاكم وابن جرير الطبري المؤرخ، وأكد ثانيتهما البخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه، والنسائي من حديث مالك بن صعصعة.

نقول: مهما يكن من قول بعضهم (٧٤) في هاتين الحادثتين من الناحية التاريخية - فإن العبرة المستخلصة من هذه الحادثة - أن بشرًا ممتازًا كمحمد لا تدعه العناية الإلهية غرضًا للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس، وإنها لا تختار للغاية العظمى إلا نفسًا عظيمة (٧٥).

ومن هنا فقد كانت سيرة محمد قبل البعثة سيرة إجلال وأريحية، ولم يعرف أنه ﷺ شارك في صغائر أو فساد قط.

فالعظمة الإنسانية - بكل مقاييسها الصحيحة - صالحة لأن تطبق عليه، ودلائل النبوة - من جانب آخر - ناضحة في كل مسيرته الإنسانية.

والفرق بين النبوة والعظمة هو أن مقاييس الكمال في النبوة لا تقاس بمن في الأرض، ومقاييس العظمة تقاس بمن في الأرض، والنبوة سماء تتكلم نورًا، والعظمة تراب يصعد غرورًا إلا أن العظمة المستمدة من النبوة نور من الأرض يتصل بنور السماء (٧٦)، وليس وصف النبي بالعظمة أو العبقرية معناه أن النبوة من جنس هذه العبقرية أور البطولات - كما وهم

بعضهم - لكن يراد به مجموعة الملكات والمواهب والاستعدادات التي فطر الله نبيه عليها، فهي له نور في الأرض، قبل أن يتصل به نور السماء، ومن هنا كان مبدأ العصمة عن الكبائر قبل النبوة وبعدها(٧٧) .

ويقول الأستاذ (عباس محمود العقاد) ، في دفاعه عن وصفه لمحمد بالعبقرية في كتابه الموسوم باسم (عبقرية محمد) يقول:

«ولهذا كان تقدير محمد بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين نافعًا في هذا الزمن الذي التوت فيه مقاييس التقدير، إنه لنافع لمن يقدرون محمداً - عليه الصلاة والسلام - وليس بنافع لمحمد أن بغى الجهلاء إلا كما نال منه بغي الكفار. . . وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والبيانات التي يراها غير المسلم فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجري على مجراه فيها لأن مسلمًا يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين».

مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس(٧٨) .

فلا ضير إذن في أن نتحدث عن الشمائل الإنسانية عند النبي ﷺ تحت أي عنوان ، لندل على أن محمداً كان عظيمًا بكل مقياس، وأن حظه من التوقير والاحترام والإعجاب ، ومكانته في التقدم على عظماء الأرض، يجب أن يشارك فيها المسلم وغير المسلم، ويضاف إلى هذا أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل من شمائل محمد شمائل إنسانية بكل عرف، وبكل مقياس وبكل تقدير، وفي جميع الأمكنة والأزمان إلا ليدلّ

على أنه نبي الإنسانية الكامل، ومثلها الأعلى، وملاذها الأخير [٧٩] ﷺ

وها هي القرون تتابع، ومنكرو عظمته يتضاءلون ، وجوانب نبوته تزداد تألقًا ، وشهادات الخصوم - قبل الأنصار - أصبحت تلقف الأكاذيب والتلفيقات التي أحيطت بها سيرته، بحيث لم يجد (مايكل هارت) سنة ١٩٧٨م - وهو النصراني - بدًا من أن يضعه على رأس قائمة العظماء في التاريخ.

إنه «الأول» بعد أن كان محمد عليه الصلاة والسلام في (جحيم) «الكوميديا الإلهية» للشاعر المعروف (دانتي) خلال القرون الكنسية الوسطى!! وكأنَّ (مايكل هارت) كان يتوقع دهشة مواطنيه الأمريكان، حينما جاء محمد «الأول» في التاريخ فهو يحاول - جاهدًا - أن يبرِّر النتيجة التي انتهى إليها البحث فيقول:

«إن اختياري لمحمد ليكون في رأس القائمة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، إن هذا الاختيار ربما أدهش كثيرًا من القراء إلى حد أنه قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقاد المؤلف أن محمدًا كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى، وبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي» [٨٠].

وقبل (مايكل هارت) دوت خلال النصف الأول من القرن العشرين للميلاد (الرابع عشر للهجرة) كلمات الكاتب والفيلسوف الأيرلندي المشهور (برناردشو) التي نظر فيها إلى عظمة (محمد الرسول) بالمقياس الإنساني العام، ولم يملك إلا أن يخاطب بني قومه ويقول:

«لقد وضعت دائمًا دين محمد موضع الاعتبار السامي، بسبب حيويته العظيمة، فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذابًا لكل زمان ومكان».

ثم استطرد يقول:

«لا مشاحة في أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال، لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوربا في الغد القريب، وقد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم. ولقد صور أكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان: إما بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم.

ولقد كانوا ـ في الواقع ـ يمرنوننا على كراهية محمد وكراهية دينه وكانوا يعتبرونه خصمًا للمسيح.

ولقد درسته باعتباره رجلاً عظيمًا ـ فرأيته بعيدًا عن مخاصمة المسيح ـ بل يجب أن يدعي : منقذ الإنسانية.

وإني لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث، لنجح في حل مشكلاته، بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو في أشد الحاجة إليهما.

ولقد أدرك في القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون، أمثال كارلايل وجوته... القيمة الذاتية لدين محمد. وهكذا وجد تحول حسن في موقف أوربا من الإسلام. ولكن أوربا ـ في القرن الراهن ـ تقدمت في هذا السبيل كثيرًا، فبدأت تعشق عقيدة محمد. وفي القرون القادمة، قد

تذهب أوربا إلى أبعد من ذلك، فتعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها، بهذه الروح يجب أن تفهموا نبؤتي»[٨١].

انتهى ما نقلناه عن برناردشو وفيه عظيم الدلالة لمن ألقى السمع... وهو شهيد.

وهكذا كما رأينا من تحليل البرهمي ومايكل هارت وبرناردشو ـ تقف (شخصية محمد الرسول) ـ فذة سامقة... أمام كل العصور والأماكن والمذاهب ... وأمام كل المقاييس الإنسانية الصحيحة.

فعليه الصلاة والسلام.

التأثير الأخلاقي للرسول في التاريخ :

حفظ لنا التاريخ سيرًا كثيرة، وقدم لنا عشرات الفاتحين والقواد وبناة الدول وقد حفظت لنا ـ كذلك ـ الكتب المقدسة، وبقايا التاريخ ، سير كثير من الأنبياء والمرسلين.

وقد بقي في حياتنا المعاصرة من آثار الأول الشيء الكثير، على الأقل من الناحية الاسمية، فلا يزال هناك نصارى يقترب عددهم من ضعف عدد المسلمين، ولا زال هناك يهود يمثلون (٢٥ في الألف) من عدد المسلمين...و لا زال هناك... بوذيون وبراهمة... بل في الأرض عدد يربو على عدد المسلمين من الشيوعيين والعلمانيين الملاحدة.

ولكن الحقيقة أنه لا جماعة من هذه الجماعات تنتمي الانتماء

العجيب لدينها ولنبيها ولحضارتها مثل المسلمين.

فإن النصرانية في الاتحاد السوفيتي بعد ظهور الثورة البلشفية بالرغم من وقوف أمريكا وأوربا وراءها قد استسلمت استسلامًا مهينًا، بينما بقي المسلمون يقاومون ـ ولا يزالون ـ أعتى نظام بوليسي إرهابي!!

يضاف إلى ذلك أن الكثرة من النصارى ـ باستثناء الأقليات ـ قلما تفكر في هويتها النصرانية، بل إنها في أمريكا وأوروبا الغربية، تجعل من «العلمانية اللبيرالية» الدين الرسمي ومنهج الحياة ، وليس للنصرانية تأثير إلا في بعض المظاهر الساذجة ولدى العجزة.... ولا تكاد تشم ـ بعد ذلك ـ أي تأثير للمسيح ولا لإنجيله المفقود!!

ويقال في بقيج المذاهب والأديان ما يقال في النصرانية باستثناء اليهود الذين يخضعون لقانون الأقليات، ويحاربون ضد الذوبان في العالم، ومع ذلك فقد نسبوا إلى موسى عليه السلام صورًا سيئة من الأخلاق لا تجوز على نبي كريم معصوم.

لكن، من بين كل الملل والنحل التي ظهرت في التاريخ، يقف الانتماء الفكري والوجداني الإسلامي، ثابتًا كل الثبات، ومكافحًا كل الكفاح، من أجل ذلك الدين الذي مثله بأخلاقه، وطبقه على نفسه، قبل أن يدعو الناس إليه ذلك النبي العظيم محمد عليه الصلاة والسلام.

ولو أتيح للألف مليون مسلم أن يختاروا اختيارًا حرًا صحيحًا. منهج حياتهم و دستور دولهم والشريعة التي تحكمهم والمثل الأعلى الذي تدور حوله أخلاقهم ـ لما اختاروا ـ وبكل حب ولهفة ـ إلا إسلامهم، وإلا

شريعتهم الإسلامية، وإلا إمام حضارتهم ومثلهم الكامل الأعلى محمداً عليه الصلاة والسلام.

ومن هنا تتكتل القوى العالمية ضد ذلك اليوم، وتقف بكل الطرق حائلاً دون تحقيق أمل الأمة الإسلامية العظيم.

إن العلاقة بين محمد الرسول (عليه الصلاة والسلام) وبين المسلمين علاقة من طراز فريد في التاريخ.... إنها علاقة أخلاقية أساسها:

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾[٨٢] .

أي أنها علاقة رحمة وحب، وليس فيها شيء من أشياء هذه الدنيا ـ فإنه ـ عليه السلام ـ ما كان لديه شيء يغريهم به، بل إنه كبدهم الأموال والدماء والأولاد والزوجات.

إنه كلف المهاجرين الكثير. فقد تركوا عزهم وأمنهم ومالهم في مكة ليهاجروا مرتين إلى الحبشة، لا يعرفون ماذا سيكون مصيرهم، ثم هاجروا إلى المدينة ، تاركين أموالهم وديارهم... بل إن بعضهم (كصهيب الرومي) تنازل للمشركين عن أمواله في سبيل أن يتركوه يلحق بالرسول.

أما الأنصار فقد تكلفوا الكثير دون أن يكون في ذهنهم انتظار أدنى مقابل.... إنهم عاهدوه في العقبة الثانية على أن يحاربوا الدنيا كلها ـ لو وقفت في طريق دعوته، وقالوا: نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف [٨٣]ـ مع أنهم كانوا قلة أمام قريش واليهود وبقية القبائل الوثنية

في الجزيرة.

وقد نزل الرسول والمسلمون عليهم فشاركوهم في أموالهم ودورهم، وقد تنازلوا لهم ـ وللرسول ـ عن كل شيء حبًا وطواعية، حتى استحقوا أن يثني القرآن ليهم بقوله:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨٤) !!

ومع ذلك فهؤلاء الأنصار لم تقع الخلافة فيهم بعد وفاته، ولقد تنبأ الرسول ﷺ بهذا حين أوصى بهم خيرًا في خطبته في مرض الموت، والأعجب من ذلك أن الرسول ﷺ لم يعطهم شيئًا يذكر عندما انتصر في موقعة (حنين) وأعطى معظم غنائمها للمؤلفة قلوبهم... ولما وجدوا في أنفسهم من هذا الأمر الذي كان كفيلاً في أي ظرف تاريخي آخر أن يحدث انشقاقًا خطيرًا .. خطبهم رسول الله خطبة تعتبر آية من آيات الحب الذي يسمو فوق عوارض الدنيا..

لقد جمعهم الرسول وقال لهم :

يا معشر الأنصار : ما قاله بلغتني عنكم؟ وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا بلى : الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ ـ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ .. قال

ﷺ : «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: آتيتنا مكذبًا فصدقناك ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فأويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة [٨٥] من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم.

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» ـ فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا [٨٦].

إن هذه الخطبة التي ملأت لحى الأنصار دموعًا هي دليل من تلك الأدلة الكثيرة على تفرد ذلك التأثير الأخلاقي الذي تركه رسول الله ﷺ في المسلمين. . .إنه أثر يتميز في نوعه وجوهره عن كل الآثار والعلاقات التي ظهرت في التاريخ، فهذا الأثر الأخلاقي قد أحدث انقلابًا اجتماعيًا قاده محمد بعمله ومثله وشخصيته الفذة، فتعلق الناس به، وتركوا من أجله جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم [٨٧].

أجل . . . لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام قائدًا أخلاقيًا تهوى إليه أفئدة الناس وتتعلق به ؛ إذ كان في القمة من كمال النفس وجمال الخلق والشمائل الكريمة ، وكان على أعلى قمة الشرف والنبل والخير والفضل [٨٨]. وهي مؤهلات القيادة الأخلاقية السامية.

وقد أحبه أصحابه حب الهيام، وحل منهم محل الروح والنفس، وشغل منهم مكان القلب والعين، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الجذور[٨٩]. كما يقول بعض المؤرخين .وما أحبه أصحابه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال لم يرزق مثلها أحد.

عن أنس بن مالك (خادم رسول الله) قال: «لما كان اليوم الذي دخل النبي ﷺ في المدينة أضاء منها كل شيء. فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم فيها كل شيء وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا»[٩٠].

إنها بشاشة العاطفة الغامرة ينضح بها كلام خادمه أنس، فقد صبغت هذه العاطفة الآفاق بألوانها الزاهية مرة، وبسوادها الكابي على كل شيء مرة أخرى[٩١].

وفي المواقف الصعبة التي يفر فيها المرء من أخيه وأمه وأبيه أثبت فيها المسلمون حبهم النادر لمحمد الرسول، ففي اللحظات العصيبة في غزوة أحد، حينما أحاط المشركون بالرسول، وأصابوا رباعيته اليمنى السفلى ، ووجنته وشج في رأسه... في هذه اللحظات قام المسلمون ببطولات نادرة، فقد كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي الرسول ﷺ ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو، وهو يقول للرسول: نحري دون نحرك.

وقام أبو دجانه أمام الرسول فترس عليه بظهره والنبل يقع منه و هو لا يتحرك.

وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص الذي كسر الرباعية الشريفة فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه و سيفه. وكان

سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه عتبة إلا أنه لم يظفر به بل ظفر به حاطب. وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه، فقال: مجّه فقال: و الله لا أمجّه أبدًا، ثم أدبر يقاتل فقتل شهيدًا(٩٢).

وقد نعى إلى امرأة من بني دينار زوجها وأخوها وأبوها في أحد، فقالت: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا خيرًا يا أم فلان، فقالت : كل مصيبة بعدك جلل(أي صغيرة)(٩٣).

وإن أي كاتب لا يستطيع أن يتتبع الأثر الأخلاقي لشخصية الرسول ﷺ إلا إذا تتبع تفاصيل رحلته في الحياة كلها، وإلا إذا تتبع ـ كذلك ـ حياة أصحابه وتفاصيل علاقتهم به.

ففي حياة كل منهم ـ معه ـ صور من الحب لا يتطاول إليها... في حياة أبي بكر،وعمر، وعثمان، وعلي،ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة... وكما يقول كاتب «عربي نصراني» : إن من يمعن التفكير في سيرة محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه، ﷺ ـ يري نفسه منساقًا إلى الإقرار بأن ما حققه وقام به يكاد أن يكون من دنيا غير التي يعرفها البشر ويألفون...

لقد استطاع محمد خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن أن يحدث ثورة خلقية وروحية واجتماعية لم يستطعها أحد في التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة(٩٤).

ويتابع الكاتب النصراني العربي المنصف، شهادته الرائعة فيقول:

لقد أعاد ـ أي محمد ـ الله إلى قلوب البشر، وهم الذين استبدّت الوثنية بقلوبهم مئات السنين، راحوا في خلالها يعبدون الأصنام والأشياء، أو يشركونها بعبادة الله، فأدت إلى إخراج الله من قلوبهم، بل من خواطرهم وعقولهم، وغدت بالنسبة إليهم، إرثًا مقدسًا ، يتصل بالأبناء عبر الآباء، وبالآباء عبر الجدود حتى أبعد حلقة في السلسلة الممتدة إلى غيهب الزمان، ذاك التراث ـ أو ذاك الإرث ـ محاه محمد وأزاله بقدرة قادر، فإذا المؤمنون يموتون بل يستطيبون الموت في سبيل الله، من أجل نشر دين الله في البشر.

ـ أولئك القوم الحاصرون همومهم في كرّ وفرّ، القاصرون نشاطهم على سبى وجناء مغانم، المنصرفون إلى الدنيا بما احتوت، والمتقاتلون، المحاربون، المتباغضون، العائشون عيشة البدو والمتخلفين، ماذا دهاهم ليصبحوا ، في خلال بضع سنين، قدوة ومثلاً في الإيمان والتقوى، في عبادة الله الذي لا كفوء له ولا شريك، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، المقرر المصائر ، الغفور ، القدير، البصير ؟

أجل . ماذا دهاهم حتى غدوا بشرا يقدسون القيم الأخلاقية ويغدون تجسيدًا لتلك القيم؟ فإذا الزهد بالدنيا، والبر بالعهد، والصدق والنزاهة والحلم والرفق والدعة، إلي جانب الجرأة واستطابة الموت من أجل الحق والخير، تغدو جميعها بعضًا ممّا اتّصف به رجال أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، وكثيرين كثيرين في تلك القافلة الفريدة في التاريخ.

ماذا دهاهم حتى غدوا، في خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن، شعبًا واحدًا، بل صفًا واحدًا وقلبًا واحدًا، وهم الذين كانوا يصرفون معظم أوقاتهم في الاقتتال والتنافر والتباغض لأتفه الأسباب؟

ماذا دهاهم حتى ارتضوا ـ وهم المنتسبون إلى قبائل كثيرة خضّبت الدماء تاريخ علاقاتها ـ أن يخضعوا لرجل واحد، فلا يناقشوا له رأيًا ولا يعصوا له أمرًا؟. وأية قوى زخروا بها حتى استطاعوا، وهم الذين لم يتمرسوا إلا بقتال بدائي، من كرّ وفرّ، أن يخضعوا أعظم امبراطوريتين بل أرقى وأعرق امبراطوريتين في سنين من الزمن معدودة؟

ذلك الشعب البدائي، المتخلف، غير المستقر، والذي لم يسبق له أن تجاوز حدود الجزيرة بل حدود مناطق ضيقة منها، يصبح في سنين قليلة حاملا مشعل هدى وحضارة ظل العالم يستضيء به مئات السنين، وإذا العالم، في ذاك الزمن، يتطلع إلى دمشق وبغداد والأندلس والقاهرة والقيروان تطلع شرقنا اليوم إلي باريس ولندن وبرلين ونيويورك وسواها من المدن التي تتولى، في عصرنا الحاضر، قيادة العالم فكريًا وحضاريًا.

إن تفسيرنا لهذه الظاهرة ـ المعجزة، نوجزه بأن ذلك الشعب استسلم لله وآمن بنبيه، بجميع ما يحتويه هذان التعبيران، الاستسلام والإيمان، من معان ومعطيات. تلك كانت عظمة الإسلام، وتلك كانت عظمة محمد(٩٥).

إن هذه شهادة حق من كاتب نصراني عربي عاش في منطقة من أبرز مناطق الصراع بين الإسلام والنصرانية... لكنه نجح في تخطي أسوار

الكذب... و الوصول إلى لب الحقيقة... فكانت هذه هي شهادته !!

أما صاحب «الأوائل» الأمريكي النصراني الذي جعل محمداً «أول عظماء التاريخ» فإنه يعزو ذلك ـ بالدرجة الأولى وحسب منهجه العملي ـ إلى أن محمدًا كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي وأنه أسس ونشر أحد أعظم الأديان في العالم وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظماء، وأنه بعد مرور ثلاثة عشر قرنًا لا زال تأثيره قويًا وعارمًا[٩٦].

وبالمقياس نفسه يشهد لمحمد المؤرخ العالمي الشهير «ول ديورانت» فيقول: «وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنسانًا غيره حقق كل ما كان يحلم به، وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه[٩٧]، فقد لجأ إلى خيالهم، وإلى مخاوفهم وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان، قليل عددها متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة، وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، دينًا سهلاً واضحًا

قويًا،وصرحًا خلقيًا قوامه البسالة والعزة، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم»[٩٨].

ونكتفي بهذه الشهادات الثلاث التي نعتقد أنها تصوير لبيان أثر محمد عليه الصلاة والسلام في التاريخ وفي الحضارة الإنسانية على امتداد أربعة عشر قرنًا.

وما عمدنا إلى ذكرها إلاّ لنبيّن أن محمدًا الرسول ﷺ صاحب شخصية نموذجية عظمى في التاريخ، وأن هذه الشخصية لم تكن ـ وحدها ـ في قمة السمو الإنساني لاعتبارات عاطفية إسلامية، أو من وجهة نظر إسلامية فحسب ، وإنما هي كذلك بالمقاييس العامة للشخصية... سواء في وضوحها التاريخي الدقيق، أم في تأثيرها الإنساني العام الممتد في الزمان والمكان... وسواء في «الكمّ» التأثيري العظيم، أم في «الكيف» النادر الأتباع الذين لم يفز بمثلهم أي عظيم في التاريخ وبالتالي يصبح بديهيًا ومنطقيًا ومن مسلمات التاريخ أن نقول : إن شخصية محمد ـ بكل المقاييس الإنسانية العامة ـ أعظم شخصية في التاريخ....

وصلى الله على محمد النبيّ الرحيم والإنسان العظيم وعلى أتباعه وآله وسلم...